

أدب الرسائل في مملكة بلنسية في القرن 11/5 دراسة نقدية

د. عدنان محمود عبيدات
الجامعة الأردنية

المقدمة :

يتناول هذا البحث أدب الرسائل في مملكة بلنسية، وثمة دوافع مختلفة دفعتني إلى ذلك منها غزارة المادة، وكثرة الجوانب التي طرقتها هذه الرسائل. والدراسة مقصورة على الأدباء البلنسيين، والبلنسي هو كل من عاش في بلنسية من حيث الولادة والسكن، ومنهم -وهم قلة- من ارتحلوا إليها. واعتبرت كل رسالة كتبت في بلنسية وأعمالها رسالة بلنسية، لأنها عكست أحداث المملكة، وقد امتدت هذه الفترة من بداية القرن 11/5 إلى الربع الأول من القرن 12/6.

اعتمدت في جمع مادة هذا البحث على مصادر متعددة، كان أهمها كتاب «الذخيرة» الذي جمع معظم الرسائل الأدبية الأندلسية، واتكأت قليلا على «الفلاند»، ووجدت بعض الرسائل المتفرقة في «نفح الطيب» وفي «خريدة القصر» وفي «المغرب في حلى المغرب». هذا وقد فرضت منهجية البحث أن أقسمه إلى فصلين وخاتمة: في الفصل الأول - وهو الموضوع الرئيس - تحدثت عن أنواع الرسائل الأدبية في الفترة المذكورة في مملكة بلنسية، وقد قُسمت إلى أنواع عدة هي:

1- الرسائل الاجتماعية، وكانت تصوّر الواقع الاجتماعي في المملكة، والعلاقات السياسية بين مدن الطوائف، وتصور بعض الأحداث والمحاولات الانقلابية في تلك الفترة.

2- رسائل الجهاد ضدّ الصّليبيين، وقد صوّر فيها أصحابها الأعمال التي قام بها الفرنجة ضدّ المسلمين، والدّعوات المختلفة والكثيرة لاستنهاض الهمم للجهاد.

3- رسائل الوصف، ومنها وصف الرّحلات، وقد أبدع فيها الأندلسيون لتأثيرهم بالبيئة الأندلسيّة الجميلة، واستمتعهم بأحضانها.

4- الرّسائل الديوانيّة، لم أفع إلاّ على رسالة واحدة في تولية رجل على القضاء.

5- الرّسائل الإخوانيّة، وقد تشعّبت في:

* رسائل المديح والمودة.

* رسائل التّهنة.

* رسائل العتاب.

* رسائل الرّثاء والتّعازي.

* رسائل الشّفاعَة والوصايا.

وتحدّثت في نهاية هذا الفصل في العلاقة بين النثر المشرقي والنثر المغربي، وحاولت أن أبين أنّنا لا نستطيع أن نجعل منهما أدبين منفصلين، بل هما أدب واحد يكمل الواحد منهما الآخر. واستعرضت في الفصل الثّاني خصائص الرّسالة في هذه الفترة، وختمت هذا البحث بتوضيح جملة من التّائج والملاحظات.

وبعد فحسبي أنّي حاولت أن أصيب الهدف، وبذلت جهدي للبحث وراء الحقيقة، وأسأل الله أن يجعل هذا العمل موفقاً بإذنه تعالى.

الفصل الأوّل : أنواع الرّسائل الأدبيّة وموضوعاتها

1- الرّسائل الاجتماعيّة:

عندما دبّ الضّعف في أوصال الدّولة الأمويّة، بدأ رؤساء الطّوائف يستقلّون بالإمارات التي يحكمونها، وسماهم المؤرّخون ملوك الطّوائف، وكان التّنافس بين هؤلاء الملوك على أشدّه في السّياسة والأدب والفنّ والعمارة، وشجّعوا الشّعراء والكتّاب والمغنين⁽¹⁾.

(1) جودت الزّكابي: في الأدب الأندلسي ص 23-25.

وعلى الرغم من ذلك فقد تميّز عصرهم بالتفكك، والانحلال السياسي والاجتماعي الشامل وعدم الاستقرار، «وقد قاسى الشعب الأندلسي في ظل طغيان الطوائف كثيرا من ضروب الاضطهاد والظلم، ولم يكن ذلك مقصوراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة التي كان يعيش في غمارها، وانقلاب الأوضاع في سائر مناحي الحياة، وتوالي الفتن والحروب الداخلية، ولكنه كان يقاسي في الوقت نفسه من جشع أولئك الأمراء الطغاة، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعا خاصة يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها، ويجعلون من شعوبهم عبيدا يستصفون ثرواتهم، وثمار كدّهم، إرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة»⁽¹⁾، وكان القرن الخامس -مجال بحثنا- من أكثر القرون اضطرابا في الأندلس، فقد كثرت المشاحنات والخصومات بين ملوك الطوائف، واشتعلت الفتن والحروب بينهم، ولا ننسى أن نشير إلى تهديد الصليبيين المستمر للوجود العربي الإسلامي هناك، الذي لم يخلصهم منه إلا المرابطون⁽²⁾.

لقد صوّرت الرسائل الأدبية الحياة الاجتماعية المضطربة في الأندلس، ونقلت لنا بدقة صورة الظروف القاسية والصعبة التي عاشها الناس هناك، ونقلت من جانب آخر انصراف الناس إلى الملذات والتّرف والمجون⁽³⁾. وتحدّثت الرسائل عن انشغال الحكّام عن الأمة بالمظاهر الكاذبة وبالملذات، وكيف تردّت الأوضاع الاجتماعية فاختر كثيرون الجوّاري والإماء لتربية الأبناء، يقول الوزير الكاتب أبو المطرّف بن مثنى⁽⁴⁾ في ردّه على أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي⁽⁵⁾ في إحدى رسائله: «فلم يقرع سمع ابن

(1) محمد عبد الله عنان دولة الطوائف ص 405 .

(2) انظر الذخيرة: ق1/م1/241- 243. انظر البيان المغرب 239/3، وأسعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ص 33- 34.

(3) انظر الذخيرة: ق3/ م / ص 761، رسالة أبي جعفر ابن أحمد الداني في وصف قصور المعتمد ابن عبّاد في الأندلس.

(4) هو الوزير أبو مروان عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى، من أهل قرطبة، سكن بلنسية، كان كاتباً للمأمون بن ذي التّون صاحب طليطلة بعد انفصاليه عن المنصور عبد العزيز بن أبي عامر، وأعان على فتح بلنسية، (ت 458 / 1065). انظر الخريدة 443/2، والذخيرة ق3/ م / 1 / 409.

(5) كان شاعرا وناثرا، وهو من بيت علم وأدب، ولد سنة 998 / 388، استقرّ بطليطلة وتوفي بها سنة 1062 / 454. انظر جذوة المقتبس ص 73.

من أبناء خاصتنا عند ميلاده، ولا خامر طبع الرضيع منهم في مهده، إلا كلام أمة لكعاء، أعجمية خرقاء... ولا ارتضع إلا ثديها، ولا اكتسب إلا عيها ولا سكن إلا في حجرها، ولا مرن إلا بتدبيرها»⁽¹⁾.

لقد كان المجتمع الأندلسي إبان عهد الطوائف يموج بالتناقضات، وظهرت هناك طبقتان: طبقة مترفة لاهية مستهترة، وأخرى متعبدة ناسكة تعيش البؤس والحرمان⁽²⁾، وانتشر الفساد، واجترأ القوي على الضعيف.

لقد واكب أدب الرسائل تدهور الحياة الاجتماعية، فالتأس في قلق دائم، وفي شكوى مستمرة، تلاحقهم المحن والأهوال، ويتبعهم العنت والضيق والبلاء في أهلهم وأموالهم وأوطانهم، يقول أبو المطرف بن مثنى في إحدى رسائله: «وقد كنت مررت ببلاد شמוש الفضائل في آفاقها مكشوفة وعيون العلم والآداب في عرصاتها مطروحة، وستائر الأحرار بين أهلها مهتوكة مكشوفة، وجنبتها بأنواع البلاء محفوفة، وقد نصبت في رباعها مياه الأمانة والأمان، ونبتت بين أهلها عيون الخيانة والبهتان، وضعف حبل الديانة فيهم والإيمان»⁽³⁾. ونقل لنا ابن عبد البر⁽⁴⁾ جانباً هاماً من جوانب الضياع والأنانية وحب السلطة في تلك الفترة، وقد صور لنا كيف تزايدت الأطماع على الحكم حتى صارع الابن أباه، وقاتل الأخ أخاه، وتحدث الكاتب عن محاولة إسماعيل⁽⁵⁾ بن المعتضد⁽⁶⁾ انتزاع الحكم من والده، ساعياً إلى خلعه والقضاء عليه، مما دفع الوالد إلى

(1) الذخيرة: ق 3/م 1 / ص 414 - 415.

(2) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ص 37.

(3) الذخيرة: ق 3/م 1/ ص 411.

(4) ذو الوزارتين، أبو محمد عبد الله الحافظ بن عبد البر النمري، كان أديباً بارعاً عمل في بلاط المعتضد بن عباد غير أنه نقم عليه فاضطر إلى عزله (ت 458 هـ). انظر الذخيرة ق 3 / م 1/ 125، والمغرب 402/2، والقلائد 538/2.

(5) هو إسماعيل بن عباد بن أحمد بن إسماعيل بن عباد قتل سنة (449 / 1057)، قتله أبوه لأنه هم باغتياله، وكان مرشحاً لخلافة والده. انظر البيان المغرب 244/3.

(6) هو المعتضد بن عباد، كنيته أبو عمرو، وهو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، ولي الأمر بعد وفاة أبيه القاضي سنة 433 / 1041، واستولى على غرب الأندلس من سنة 443 / 1051 إلى سنة 461 / 1068 بالذبح، انظر البيان المغرب 204/3.

قتل ابنه بعد انكشاف مؤامراته، وأمر بكتابة الرسائل إلى ملوك الأندلس، يبين فيها ظروف الحدث ومبرراته، يقول ابن عبد البر في رسالة عن المعتضد: «إِنَّ الغيبي العاق للعين... إسماعيل ابني بالولاد لا بالوداد، ونجلي بالمناسب لا بالمذهب، كنت قد ملت بهواري إليه، وقدمته على من هو أسن منه، وحبك الشيء يعمي ويصم، والهوى يطمس عين الرأي»⁽¹⁾. ويصف الكاتب بعد ذلك مراحل تنفيذ المؤامرة بدقة كبيرة، فبعد أن بين مقدار الدلال والعناية التي أولاهما له أحسن الولد بهذا الاهتمام فطغى وكفر بالنعمة، وأحب أن ينفرد بالسلطة، ومعه قرناء السوء، وعفا عنه والده أول مرة لكنه لم يرعو، يقول ابن عبد البر على لسان والده: «فلم أشعر به إلا وقد ألف أوباشا من خساس من صبيان العبيد ... ثم سقاهم الخمر، وسقى نفسه... وطرق القصر في بضع عشرة منهم، وتعلق معهم الأسوار والحيطان، وتسئم بهم السقوف والجدران، يروم في القضية العظمى، والطاقة الكبرى التي قام دونها دفاع الله تعالى، فشعرت بالحركة، وخرجت، فلما وقعت أعينهم عليّ تساقطوا هاربين وتطارحوا خائفين خائبين». ثم يصور كيف لاحقه، وكيف وقع الجميع في قبضته، يقول: «وأقمت حدود الله تعالى على الجميع منهم، وأنفذت حكمه العدل فيهم، فأعجب ياسيدي لأبناء الزمن، وأبناء الفتن، وانقلاب الابن المقرب الودود إلى حال الولد الحسود»⁽²⁾ وقال ابن بسام: «ولما أنشأ أبو محمد رسالته المقدمة الذكر تناغت له لمة من كتاب العصر لمعارضتها»⁽³⁾.

ولابن عبد البر رسالة أخرى يصور فيها غدر الأخ بأخيه، بعثها عن ابن مجاهد⁽⁴⁾ إلى ابن أبي عامر⁽⁵⁾ يعلمه بغدر أخيه حسن⁽⁶⁾ به، ويذكر أنه قد أخذ البيعة من حسن

(1) الذخيرة: ق3/ م1/ ص138-139. (2) المصدر نفسه: ق3/ م1/ ص140-141.

(3) المصدر نفسه ق1/ م1/ ص152 وما بعدها.

(4) هو إقبال الدولة علي بن مجاهد، أقبل العلماء عليه، حكم بعد والده، واهتم بجمع الأموال حتى هاجمه ابن هود، واستولى على دانية سنة 1075/468. انظر البيان المغرب 164/4 والمغرب 355/2.

(5) هو المنصور عبد العزيز بن الناصر بن المنصور، تولى شؤون بلنسية سنة 1026/417، وتوفي سنة 1060/452. انظر المغرب 300/2.

(6) هو ابن مجاهد، لقب بسعد الدولة، انظر البيان المغرب 3/ 157.

راضيا، لكنّه غير نواياه، وتأمّر مع المعتضد بن عبّاد، يقول: «فما آن لمداد عهده أن يجفّ، ولا حان ليد عاقده أن تنحرف، حتّى داخل صاحب إشبيلية، فأنفذ إليه رجلا يدعى سلمة من جنده، ليتصرّف على إرادته»⁽¹⁾، ثمّ يوضح كيفيّة المؤامرة، وكيف أنّ العناية الإلهيّة هي التي أنقذته، يقول: «فما استيقظت إلّا لصفح صفائحهم تسلّط عليّ، ولا انتبهت إلّا لضوء رماحهم تشرّع إليّ إلّا أنّ الله كان بإزائي ظهيرا... وفزت وقد انجلت الكرّة عليهم»⁽²⁾، ويصف الكاتب على لسان ابن مجاهد حال أخيه، فقد كان يرفل في النعمة والعزّة، لكنّ الأمانى غدرت به حتّى قضت عليه، وقد ختم رسالته بالآيات القرآنيّة التي تناسب الموضوع.

لقد عبّرت الرسائل الأدبيّة عن كثير من الفتن والاضطرابات الداخليّة، وصوّرت كثيرا من الخصومات السياسيّة التي كانت تصطرع في الأندلس، كما نقلت لنا جوانب مهمّة من حروب الممالك الأندلسيّة بعضها مع بعض، وكان بعض الكتاب يهتّون رؤساءهم وملوكهم بالانتصارات التي كانوا يحرزونها على منافسيهم من رؤساء الإمارات الأندلسيّة الأخرى، ومن ذلك رسالة لأبي محمد بن عبد البر عن مجاهد العامري⁽³⁾ إلى المعتضد بن عبّاد مهتّئا إيّاه بأخذ «شلب»⁽⁴⁾، يقول: «أعزز به من صنيع جميل، صنيع الله لك بحصول قاعدة «شلب»، وذواتها في قبضتك، واستغلال ذلك الأفق بظلّ طاعتك، وخروج صاحبها عنها من غير عقد عاصم، ولا عهد لازم»⁽⁵⁾ ويصف الأوسيّ المراكشي كيف خطّط لاحتلال المدينة وهزيمة أميرها بقوله: «فشّن عليه الغارات، ووالى عليه الرّيات، ثم نزل عليه... وضايقه، وقطع عليه المرافق كلّها...

(1) الذّخيرة ق 3 / م 170.

(2) المصدر نفسه ق 3 / م 170.

(3) هو الموفق مجاهد بن عبد الله، ملك الجزر ميورقة ومنورقة ويابسة، واقتطع دانية في عصر ملوك الطوائف، كان عارفا بالعربيّة وعلوم القرآن، شاع العلم في حضرته. انظر البيان المغرب 155/3، والمغرب 401/2.

(4) مدينة بغري قرطبة، انظر معجم البلدان 357/3.

(5) الرسالة في الذّخيرة ق 3 / م 129.

فساءت الحال، واشتدّ البلاء على أهل شلب وغيرها، إلى أن دخل المدينة عنوة بعد هدم سورها بالمجانيق⁽¹⁾.

لقد صوّرت الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري كثيرا من جوانب الحياة المختلفة، ونقلت لنا الحالة الدّقيقة التي كان يحياها الناس هناك، حالة الأنانيّة وحبّ السّلطة التي كانت تسود في الإمارات، فالابن ثار على والده، والوالد قتل ابنه، والأخ حارب أخاه في المملكة الواحدة، ولا ننسى أن نقول إنّ الرسائل الأدبيّة الاجتماعيّة قد عبرت عن كثير من علاقات الإمارات بعضها مع بعض، وكانت - كما ظهر - قائمة على الحروب والاحتلال، وعلى التحالفات والخصومات.

2- رسائل الجهاد ضدّ الصّليبيين:

انشغل المسلمون في الأندلس - في هذه الفترة - بخلافاتهم الداخليّة، وفي الجهة الأخرى كان الصّليبيّون يعدّون العدة للفتك بهم، فساروا بجحافل جرّارة، يدفعهم في غزوهم تعصّبهم الدّيني، وكانوا يدمّرون كلّ شيء ويقتلون كلّ كائن حيّ، لا يرحمون صغيرا ولا كبيرا، «ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى، والفتنة بين أمراء الأندلس - قبحهم الله - تستعر إلى أن كلّب العدو على جميعهم، وملّ من أخذ الجزيرة، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد وانتزاعها من أيدي المسلمين⁽²⁾، وكانت شدّة بطش الصّليبيين تزداد كلّما كان الحصن منيعا مستعصيا، وسقوط «بربشتر»⁽³⁾ في أيديهم وقسوتهم على أهلها خير شاهد على ذلك، حيث حصلوا منها على أموال جليّة، فكان أشدّ الرّزايا بهذه الجزيرة، وحصل بأيدي الرّوم من نساء بربشتر وذريّتهم قرابة المائة ألف، حصل من ذلك سهم رئيسهم اللّعين أربعة آلاف نسمة، اختارهم أبكار من

(1) البيان المغرب 3 / 289.

(2) المصدر نفسه 3 / 283 - 239، وانظر أيضا الشّعر والبيئة في الأندلس ص 31، والبيئة الأندلسيّة وأثرها في الشّعر ص 33-34، ومحمد لبيب البتوني: رحلة الأندلس ص 128.

(3) مدينة كبيرة شرق الأندلس. انظر معجم البلدان 1 / 370.

الثمانية أعوام إلى العشرة، فأهدى منهم لملكه ما شاء»⁽¹⁾، لقد كانت حالة المسلمين في الأندلس مخزية في عهد حكم ملوك الطوائف، دفعهم إلى ذلك أنانيتهم ولذائذهم، وعدم اهتمامهم بأمور رعاياهم، وكان الصليبيون رمزا للبطش والقسوة التي لا يعرف أصحابها رحمة أو إنسانية، يتجلى عندهم التعصب الديني في أضيق صوره.

واكبت الرسائل الأدبية هذه الحوادث وغيرها، وعاشتها وصورتها، ومن هذه الرسائل التي تحدثت في هذه الموضوعات رسالة⁽²⁾ لابن طاهر⁽³⁾ بعثها إلى المعتصم بن صمادح⁽⁴⁾ يصف فيها العدو العايب بالأندلس، ويشير إلى تكتل الصليبيين ومحاصرته لمعاقل الإسلام، «وذلك أن فرديناند نزل قلعة أيوب محاصراً...»، ويتحدث بعد ذلك عن حال المسلمين وعن معاناتهم، والحال التي وصلوا إليها، «المسلمون بينهم سوام ترتع، وأموالهم نهب يوزع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدع، فأطل الفكرة في هذا الخرم الداخل، والبلاء الشامل، والله المرجو لكشف الغمة، وتلافي الأمة».

ويظهر في رسالة ابن طاهر الطابع الديني، فقد أحس الكاتب الخطر الداهم على المسلمين والإسلام، يقول: «فليندب الإسلام نادب، ولييك له شاهد وغائب، فقد طفئ مصباحه، ووطئ ساحه، وقص جناحه، وهيض عضده».

ومن رسائل ابن طاهر رسالة أخرى⁽⁵⁾ كتبها إلى بعض إخوانه يتحدث فيها عن محنة المسلمين في بلنسية على يد الطاغية الكنييطور سنة 1095 / 488، يصور ما آلت

(1) البيان المغرب 3 / 225.

(2) الرسالة في القلائد 1 / 174، وفي الذخيرة ق 3 / م 1 ص 86 - 87.

(3) هو الرئيس الأجل أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر، قفل إلى مرسية وظل يحكمها إلى أن غلبته الفتنة، وجه إليه المعتمد بن عباد جيشاً بقيادة وزيره ابن عمار، ففر ابن طاهر إلى بلنسية، ونزل في أكناف صاحبها ابن عبد العزيز، (ت 507 / 1113). انظر القلائد 1 / 170، الذخيرة ق 3 / م 1 ص 24.

(4) هو المعتصم بالله أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن صمادح، صاحب المرية، كان والده مصاهراً لعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، (ت 484 / 1091) بالمرية. انظر الذخيرة ق 1 / م 2 / 729. والمغرب 2 / 195. والبيان المغرب 3 / 167، وقلائد العقيان 1 / 146.

(5) الذخيرة : ق 3 / م 1 / 91.

إليه حالهم، ويعبر عن حزنه، ويتمنى أن تعود الأيام السالفة، يقول : «كُتبت منتصف صفر، وقد حصلنا في قبضة الأسر، بخطوب لم تجر في سالف الدهر، فلو رأيت قطر بلنسية - نظر إليه، وعاد بنوره عليه- وما صنع الزمان به وبأهليه، لكنت تندبه وتبكيه، فلقد عبث البلى برسومه، وعفى عن أقماره ونجومه، فلا تسأل عما في نفسي، وعن نكدي ويأسي».

واشترك ابن عبد البر في تصوير حال المسلمين في رسالة⁽¹⁾ كتبها على السنة أهل برُبُشتر وبعث بها إلى ولاية المؤمنين في الأندلس عندما سقطت المدينة بيد الأسبان سنة 1063/456، واستعرض في بداية الرسالة ما عليه أهل هذه المدينة من ذل وهوان، فهم يستغيثون لأن مصابحهم كبيرة، وقلوبهم محترقة، والكفر يمدّ جناحيه فوقهم في كل مكان، والمستعمر ينتهك الحرمات والأعراض، يقول: «فلو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثختهم الجراح وعبث بهم زرق الرماح، وقد كثر الضجيج والعيول والنواح، ودماؤهم على أقدامهم تسيل، سيل المطر بكل سيل، ورؤوسهم قدامهم تطير وقلوبهم في أجسادهم تستطير، ولا مغيث ولا مجير، وقد صمّت الأذان بصراخ الصبيان ونواح النسوان». ويستنهض في رسالته همم المسلمين ببعث الحافز الديني في نفوسهم، مشيرًا إلى أن الحرب دينية، يقول: «وما ظنكم - معشر المسلمين - وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبقة بالشرك والبهتان، مشحونة بالتواقيس والصلبان»، ويدعوا الكاتب في ختام رسالته المسلمين إلى الجهاد، ويحذّرهم من دوام الفرقة والتشردم، لأن ذلك يشتت الشمل، ويذهب الريح، ويطمع أعداءهم فيهم، يقول : «فيا ويلاه، وذلاّه، ويا كرباه، ويا قرآناه ويا محمّده، ألا ترى ما حلّ بحملة القرآن، وحفظة الإيمان، وصوأم شهر رمضان، وحجاج بيت الله الحرام، فلو شهدتم -معشر المسلمين- ذلك، لطارت أكبادكم جزعًا، وتقطّعت قلوبكم قطعًا، واستعذبتكم طعم المنايا لموضع تلك الرّزايا».

ومثلما صوّر الكتاب حال المسلمين في وقت الشدة والهزيمة، صوّر بعضهم انتصاراتهم على الصليبيين، ومن ذلك ما كتبه ابن طاهر عن بلنسية عندما أعيدت إلى الإسلام، فقد كتب رسالة⁽¹⁾ إلى الوزير أبي عبد الملك بن عبد العزيز يصوّر فتحها من قبل المسلمين، وانتهاء الاحتلال القشتالي لها سنة 1101/495، ويخبره بالفتح، يقول: «فالحمد لله، مالک الملك، مطهرها من الشرك، وفي عودتها إلى الإسلام عزّ وعزاء». ومن جملة هذه الرسائل رسالة⁽²⁾ في التهديد والوعيد كتبها أبو جعفر أحمد بن أحمد⁽³⁾ عن بعض أمراء الأندلس إلى قوم النصارى يتوعدّهم، لأنهم نقضوا عهدهم مع المسلمين، يقول: «أيتها الشرذمة الطاغية، إنكم لنا لغائظون، وإنكم لتفسدون في الأرض ولا تصلحون، ناشدتمونا الله في عقد السلم أن تكفوا عن المسلمين عادة الأذى والاستطالة... هتكتم الحرم... واستيتيم الحرائر.... ولم ترقبوا فينا إلا ولا ذمة، ولا رعيتم لنا سلفا ولا حرمة، وليس إلا حكم الله بيننا وبينكم». وكتب ابن خفاجة⁽⁴⁾ كتابا أجاب به العدو مهدداً، ومبيّنا شدة بأس أبطال المسلمين وقوتهم، ويخاطبهم بقوله: «وكأنني بك في القيد، ووثاق القد، فقد خيّرت بين اثنين: إما أن تسلم فتسلم، و تشرك فتهلك».

لقد كان أدب الرسائل الذي يتحدّث عن الجهاد عند الصليبيين سجلاً حافلاً لأحداث التاريخ في تلك الفترة الهامة من حياة حضارتنا العربية الإسلامية، فصور الأحداث والنكبات، مثلما تحدث بفخر واعتزاز عن المعارك والانتصارات التي حقّقها المسلمون في تلك الفترة.

(1) المصدر نفسه ق3/ م 1 / 102.

(2) المصدر نفسه ق3/ م 1 / 768.

(3) هو الوزير أبو جعفر أحمد بن أحمد، من أعيان كتاب بلنسية من مدينة دانية، كان مقدماً عند ملوك الطوائف، له شعر ونثر. انظر الذخيرة ق3/ م 1 / 758، والقلائد 486/2، والمغرب 307/2.

(4) الذخيرة ق3/ م 1 / 559. وابن خفاجة هو الفقيه الأديب أبو إسحاق، من أهل جزيرة «شقر» من أعيان بلنسية، ومن فحول الشعر الأندلسي، ولد سنة 1058/450 وتوفي سنة 1138/533. انظر القلائد 739/3، والمغرب 367/2، والذخيرة ق3/ م 2 / 541.

3- رسائل الوصف:

وصف الأندلسيون الطبيعة الحية من زهر وثمر وطيور وحيوان ورياض وربيع، ووصفوا ظواهر الطبيعة المختلفة، كالليل والنهار والنجوم وغيرها، «وقد توغل أثر الطبيعة في الأدب فصبغ ألفاظه وأساليبه وصوره وأخيلته وأفكاره ومعانيه بألوان زاهية في كل العصور⁽¹⁾. والوصف من أهم الظواهر اللافتة للنظر في الرسائل الأدبية في الأندلس، وخاصة وصف الطبيعة لأنها اشتهرت بطبيعتها الساحرة، وبساتينها الجميلة، وقصورها الباسقة، «وحول هذه القصور كانت الحدائق الواسعة، وبها كثير من الفواكه والأزهار، وعلى امتداد الأنهار قامت المنازه التي كان يؤمها الأندلسيون فيتمتعون بآيات الجمال فيها، ويتأملون في تأن، ويسجلون ما بها من إبداع وروعة⁽²⁾. ولم تكن الطبيعة وحدها هي التي ساعدت على ذبوع هذا الفن من الرسائل في وصف الطبيعة، بل ساعدت على ذلك حياة الأندلسيين اللاهية بين أحضان الطبيعة، وهي «طبيعة تفرض نفسها على الناس فرضاً... في روايتها المشرقة، ووديانها المنبسطة، ومغانيها الضاحكة وينابيعها المتدفقة، ومروجها الخضر، وآفاقها الحاملة، وأجوائها الناسبة، وأدواحها المظلة، وخمائلها الفاتنة، يهزها الهفيف والحفيف، وأنهارها الملتفة كأساور المعاصم على الهضاب العالية، تكسوها النباتات الياقة والأشجار الباسقة⁽³⁾».

ومن الرسائل التي وصفت الطبيعة رسالة كتبها ابن خفاجة الأندلسي في وصف روضة غناء، يقول فيها: «فاجتللنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق، ومازلنا نلتحف فيها ببرد ظل ظليل، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل، ونجبل النظر في نهر فسيح، صافي لجين الماء، كأنه مجرة السماء...⁽⁴⁾».

(1) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ص13، وانظر أيضا الشعر والبيئة في الأندلس ص11.

(2) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ص25.

(3) د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري ص 17.

(4) الذخيرة: ق3/2م/544، وانظر في الموضوع نفسه ق3/1م/546.

وكتب ابن خفاجة أيضا يصف متزّها سار فيه، واستمتع بهوائه، فقد سقط المطر ثم توقّف، وانفشعت الغيوم، وبدأت الشمس ترسل أشعتها التي تمتزج مع جمال الخضرة في الأندلس، يقول عن ذلك المتنزه: «والدنيا تبتهج كأنّها عروس تجلّت، وقد تحلّت، ذهبت في لمة من الأخوان نستبق إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرّج أرضاً، فلا ندفع إلّا إلى غدير نمير، وقد استدار منه في كل قرارة سماء... وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشي على بساط وشي، فإذا مرّ بغدير درعاً، أحكمه صنعاً»⁽¹⁾.

ووصف الأندلسيون القور الشامخة، وما فيها من بساتين ورياض وزهور ومياه، ومنهم أبو جعفر أحمد بن أحمد الذي وصف قصور المعتمد بن عباد، يقول في وصف قصره المسمّى «المكرم»: «ولنّما العجب الأعجب ما نُمي إليّ عنك ممّا تكامل فيك، واجتمع لك من حدائق بواسق في أيسر من رجعة الطرف، وأسرع من قبضة الكفّ، إلى أنوار أينعت، وأزهار تنوّعت، فمن ورد كتوريد الخدود، ونرجس كمقل الغيد، وسوسن كأنّه راحة ثنت البنان على قراضة من العقيان»⁽²⁾.

ولم ينس الأندلسيون الرّحلات؛ فقد وصفوها وأجادوا فيها وأبدعوا، لأنّ الرّحلة والسّفر من طبيعة حياتهم، والطريق سابلة بين الممالك الأندلسيّة المختلفة بين المغرب والأندلس من جهة والمشرق من جهة أخرى. ومن الذين كتبوا وصوروا رحلاتهم بدقّة أبو عبد الله محمد بن مسلم⁽³⁾، حيث سافر في البلدان الأندلسيّة المختلفة، ووصف أهمّ مدنها الواحدة تلو الأخرى، وقد كتب رسالة في الوصف سمّاها «طيّ المراحل»⁽⁴⁾ خاطب بها «أغلب»⁽⁵⁾ صاحب ميورقة»، وهي تشير إلى ذلك الذي كان يحمل صاحبه

(1) المصدر نفسه ق3 / م2 / 543، وانظر في إهداء تفاحة: المصدر نفسه ق3 / م2 / 545.

(2) المصدر نفسه : ق3 / م2 / 761.

(3) هو الكاتب محمد بن مسلم الداني، ويظهر من خلال الرّسائل التي اختارها ابن مسلم أنّه كان رسولا إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدّولة بن مجاهد حين نازعه المقتدر أحد الحصون. انظر الذخيرة ق3 / م1 / 427، وانظر المغرب ق3 / م1 / 405.

(4) الرسالة في الذخيرة ق3 / م1 / 428.

(5) هو صاحب ميورقة، ويذكر ابن خلدون أنّ مجاهداً وابنه عليّاً قد جعلاً أغلب على ميورقة، وكان مولى لمجاهد، ثم تخلى عن ولايته أيام علي إقبال الدّولة، انظر تاريخ ابن خلدون 164-165.

على مغادرة الوطن، فيطرق أبواب المدن واحدة بعد الأخرى⁽¹⁾. ويعتبر ابن مسلم السّفر قطعة من العذاب، يقول: «ولعلك - أيها الفاضل - ممن يظنّ هذه الأسفار فرجة، ويخال لها بهجة، كيف والسّفر قطعة من العذاب، والمسافر ومتاعه على فلت الذّهاب، وإن اتفقت مع ذلك فترة تستدمن، وبدرة تستحسن، فإنما هي كراحة المحتضر ودرة المتبحر». ويصوّر لنا الكاتب بعد ذلك ما لقيه في رحلاته وأسفاره، واصفاً حال أهل المدن التي زارها، وحال أهلها يقول: «فجئنا فلانة، وقد سدّ بابها ونام بوابها، والسّيل قد طمى، يحمل غثاءً أحوى، فلم تشكّ القلوب أنّ نفوسنا ذائقة الموت، حتّى إذا بلغت النفس التّراق والتفت السّاق على السّاق، وقيل من راق، وأشعر صاحب الحسن بمكاني، وقصّ عليه شاني، فأمر بفتح المدينة وآواني إلى حصن منيعة». ثم يسافر - بعد ذلك - إلى المريّة، ويلتقي صاحبها المعتمد بالله ابن صمادح، ويبيّن في رسالته كرم صاحبها، ويستأذن في أن يمكث فيها مدّة، ولم ينس وهو يصنّف رحلاته أن يصف الطّبيعة وجمالها، والحياة الاجتماعيّة بما فيها من ترف وثراء، وأدوات مستخدمة، يقول: «وقد أخذنا مراتب القعود إلى الطّعام، يطاف علينا بصحافٍ من فضّة وذهب... فلما أتينا إلى الرّيّ قمنا على الوضوء فجيء بطاس من التّبر، وأباريق رصّعت بالذرّ ووضعنا بماء قوامه بلّور، ومزاجه كافور»، ثم يسافر الأديب الكاتب إلى غرناطة في ظلّ المظفر أبي مناد، وهناك يصف بعض مجالس الغناء والشّراب فيها، ويصف جوّها القارس، ويتوجّه بعد ذلك إلى إشبيلية في حضرة المعتمد بن عباد بعد أن مرّ بقرطبة ووصف مسجدها، ورثى عمرانها.

ولم يقتصر الوصف في رسائل الأندلسيين على ما ذكرت، بل وصفوا بعض الحيوانات والطّيور، يقول ابن عبد البر في غزال أهدي إلى أمير: «وصل معه الغزال الأهيف، وكأنّ عينيه عينا وسان، مالت به نشوة الرّاح، وثنى عطفه هزة الارتياح، كأنّما كحلا سحرًا، وأشربا خمرا، ينظر بهما نظر المريب، ويعرض إعراض الحبيب،

(1) د. إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين ص 299).

بجيد أطلع، ومنظر أروع، وكأنّ قرنيه قلمان، وكأنّ أذنيه جلمان، ينصبهما إذا أوجس، ويشنيهما إذا أنس»⁽¹⁾.

إنّ وصف الرّحلات في رسائل الأندلسيين كان وصفا للحياة الاجتماعية التي كان يعيشها النّاس في تلك الفترة، وهو من جانب آخر تصوير لجوانب الطّبيعة الخلّابة التي كان يستمتع بها المسلمون، وكانت تميّز بلاد الأندلس عن غيرها من البلدان، ولم ينسوا أن يذكروا بعض الجوانب السّلبية الأخرى وما يلاقيه الرحالة من مصاعب ومخاطر.

4- الرّسائل الديوانية:

وهي تعالج أمور الدّولة المختلفة في الإدارة والتنّظيم، والتّشريع والقضاء، والعزل والتّولية، وتصدر عن ديوان الدّولة، وأرى أنّها لا تشمل الرّسائل التي تبادلها الأمراء بينهم في موضوعات المودّة والشّفاعاة والمدح والتّعازي، وهذا النّوع من الرّسائل قليل جدّا في هذه الفترة، في هذه المملكة إذا ما قيس بالموضوعات الأخرى، وقد يكون السّبب في ذلك عدم اهتمام الأدباء بمثل هذه الموضوعات وقد وقعت على رسالة⁽²⁾ ديوانيّة واحدة فقط، وهي لابن طاهر في تولية حاكم يبيّن فيها أنّه رجل ملتزم بدينه، ويتمنى عليه أن يقيم الحق، «وليضع العدل في ميزانه، وليساوي بين خصومه، وليأخذ من الظّالم لمظلومه، وليقف في الحكم عند اشتباهه، ولينفذه عند اتّجاهه، ولا يقبل إلّا المرضي في شهادته، ولا يعرف إلّا الاستقامة...».

لقد كانت الرّسائل الديوانيّة في هذه الفترة قليلة جدّا، وهذا يعود - كما أرى - إلى عدم اهتمام الأدباء والكتّاب بمثل هذا اللون من الأدب، ويعود أيضا إلى انشغالهم بموضوعات وقضايا كانت - بنظرهم - أهمّ من الرّسائل الديوانيّة. والرّسالة السّابقة دستور في العدالة والحكم بين النّاس، تشبه إلى حدّ كبير رسالة عمر بن الخطّاب إلى

(1) الذّخيرة ق 3 / م 1 / 214.

(2) الخريدة ق 4 / م 2 / 322-323.

أبي موسى الأشعري في القضاء⁽¹⁾.

5- الرسائل الإخوانية :

وهذه صور أخرى من صور الرسائل الاجتماعية التي تكون عادة بين الأصدقاء، وغالبًا ما تكون بين الأدباء أو بين الأمراء، وتتناول بعض العلاقات المباشرة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية معبرة عن عواطف المودة والإخاء، وعن مشاعر المحبة والوفاء والإخلاص التي يفترض أن تكون بين المتحابين. ويمكن تقسيمها إلى عدة أقسام:

1- رسائل المديح والمودة :

وكانت هذه الرسائل كثيرة في هذه الفترة، وقد عبّرت عن صدق العواطف بين الأصدقاء والإخوان، ومجّدت الإخاء والأخوة، وذكّرت بمعاني الوفاء والتّضحية، وبيّنت صفات الممدوح أو الصّديق من كرم وصدق وحمية وفضل وإخلاص، إضافة إلى الفصاحة والعلم والمعرفة وبعد النّظر.

ومن الذين كتبوا رسائل في هذا الموضوع ابن عبد البر، وابن طاهر، وابن خفاجة وغيرهم كثيرون. ومن رسائل ابن عبد البر رسالة⁽²⁾ عن ابن مجاهد إلى المنصور بن أبي عامر يمدحه فيها مبينًا أصالته، ومشيرا إلى سموّ فكره وصفاته الكريمة، مازجا ذلك كلّ بمودة إخاء، يقول: «وأنت الذي لا يداني شرفه، ولا يسامي سلفه، ولا تجارى أعراضه، فمن ظفر بصفائك عمادًا، وبوفائك عتادًا، فقد أصمى سهمه». ومن الرسائل الإخوانية التي تتّصل بالمديح والمودة رسالة⁽³⁾ كتبها أبو عبد الله محمد ابن خلصة الضّير⁽⁴⁾ عن إقبال الدّولة إلى المعتصم بن صمادح، يمدح فيها مجلسه

(1) الرسالة في البيان والتبيين 2 / 237.

(2) الذخيرة ق3 / م 165 / 1، وانظر رسالة أخرى له في الموضوع نفسه والمصدر نفسه ص 134، وانظر له أيضا رسالة إلى المظفر بن الأفتس عن ابن مجاهد في المصدر نفسه ص 166.

(3) المصدر نفسه ق3 / م 324-323 / 1، وانظر إلى إخوانياته في الموضوع نفسه ص 325-326.

(4) أبو عبد الله محمد بن خلصة الأعمى، أحد العلماء بالكلام، كتب عن إقبال الدولة مجاهد ملك دانية والجزر، قيل توفي آخر المائة 5 / 11. انظر المغرب 393/2.

وتواضعه، فهو -عنده- حرّ، كريم، مصيب، صاحب الصفات المتفردة. يقول بعد زيارة له : «ثم استوصفتهم إلتذاذا بطيب أنبائك، وصورة مجلسك مع وزرائك وأحبائك، فأوردوا من ذلك ما هو أشهى من السعادة، وأحلى من الحياة المعادة، وأسبى للنفوس من مرض الحداق».

واشترك ابن طاهر في كتابة هذا النوع من رسائل المودة والإخاء والشكر، حيث بعث برسائل كثيرة إلى غير قائد ووزير وأمير يشكرهم فيها بعد خروجه من معتقله الذي حبسه فيه ابن عمار⁽¹⁾، ويخص أبا بكر بن عبد العزيز⁽²⁾ الذي دافع عنه، فقد كتب له من جزيرة «شقر»⁽³⁾ رسالة يقول فيها: «وسنوافيك الكساء، فنغتفر للزمان ما قد أساء، ونردّ ساحة الأمن، ونشكر عظيم ذلك المن، فهذه النفس أنت مقيّلها، وفي برد ظلك يكون مقيّلها، والله مجدك وما تأتیه، لازلت للوفاء تحييه وتحويه»⁽⁴⁾.

وكتب ابن عبد البر إلى المنصور ابن أبي عامر يقول: «تا الله ما هزّت آمالي ذوائبها إلى سواك، ولا حدت أطماعي ركائبها إلى حاشاك، ليكون لذلك في أثر الوسمي للماحل، وعلى جمال الحلي للعاطل، بسيادتك الأوليّة، ورياستك الأزليّة»⁽⁵⁾.

ولأبي جعفر أحمد بن أحمد رسائل كثيرة في المديح نذكر منها رسالة في مدح الوزراء، حيث ذكر الكثير من صفاته، منها أنّه يرنو إلى المعالي ويسير في طرق لا يستطيع أحد أن يسلكها لقدرته وصلابته، يقول: «وأنت -أعزّك الله- إنّما تشيد مجدك

(1) هو محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري، أبو بكر، ذو الرياستين، أصله من قرية «شلب»، وهي تقع الآن في جنوب البرتغال، سحب المعتمد بن عباد من صغره، وكان شاعرا معروفا، انظر ترجمته في الحلة السيرة 2 / 131، وانظر المغرب 1 / 389.

(2) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز المعروف بابن المرخي (بفتح الخاء)، وهو من أهل قرطبة، كان عالما بالأدب واللغة، وكان وزيرا بقرطبة (ت 536 / 1141)، انظر الخريدة/قسم شعراء المغرب والأندلس 431/2، وقلائد العقيان 477/2.

(3) جزيرة في شرق الأندلس في مملكة بلنسية، انظر معجم البلدان 354/3.

(4) الذخيرة ق3 / 1م / 33، وانظر له أيضا المصدر نفسه ص 34، 36.

(5) نفع الطيب 72/2، الرسالة نفسها في الذخيرة ق3 / 1م / 153، وانظر مدحه للوزير أبي المطرف بن الربيع في الذخيرة ق3 / 1م / 205، وانظر مدحه للمعتمد بن عباد في الذخيرة ق3 / 1م / 153.

لأن تبذل لغيرك جهدك، وتنفق في ذلك ما عندك، وهذا طريق لا تهتدي إليه عيون آرائك، وغرض بعيد لا تصميه إلا سهام أنحائك، والله يقيكم للفضائل إماماً»⁽¹⁾.

2- رسائل التّهنة :

إنّ من طبائع البشر أن يهنئ الناس بعضهم بعضاً في ترقية أو فرح بعرس أو بنجاح، أو خلاص من نكبة، أو عند مجيء مولود. والأديب يعبر عن هذه الموضوعات شعراً أو نثراً، وقد عبّر الأدباء والشعراء في الأندلس في القرن 11/5 عن كثير من موضوعات التّهنة السّالفة الذكر، من ذلك ما كتبه ابن خفاجة⁽²⁾ يهنئ صديقا له بتوليته القضاء، وتثنيته الوزارة، ومبيناً في بداية رسالته أنّ الإنسان لابد أن يتدرّج في المناصب حتّى يصل إلى أعلاها، يقول: «بدء كون الثمر - أعزك الله - زهر، وأوّل وقوع الضّحى فجر، وإنّما تنمى الأشياء على تدرّج وترتيب، كما نشأ الإنسان من نطفة، والدوحة من قضيب»، ثم يمدح ابن خفاجة بعد ذلك صديقه، ومعدداً مآثره، فهو - عنده - شريف المرتبة من دون هذا المنصب، وهو صاحب أمجاد، يقول: «وإن القضاء وإن شرف مرتبة، وكرم مأثرة [ومنقبة] ليضيق عن نصل فضلك غمده، ويغرق في بحر فخرك مدّه، ويزدان بنحر مجدك عقده»، ثم يدعو له أن يظلّ في علو وارتقاء دائمين بقوله: «ولازلت تتقلّد الحمد عقداً، وتلبس السّعد برداً، إن شاء الله».

ومن رسائل التّهنة نورد رسالة لابن طاهر⁽³⁾ هنأ فيها صديقه ابن العطار⁽⁴⁾، وقد ثنيت له الوزارة، فهو في بداية رسالته يبدو فرحاً مسروراً، يقول: «وإن بشراي تتابعت أن هلالك في الوزارة طلع بديراً»، ثم يذكر فضائل صديقه، فهو - عنده - شريف، فذّ، صاحب دين، ملتزم، وهو عالم ورع وأديب، يقول: «ولقد قعدت للتّهنة فأقبلت إليّ هواديهها، وانثالت عليّ من حوافرها وبواديهها، جميعهم يضحك ويسرّ»، واشترك ابن عبد

(1) الذّخيرة : ق3 / م1 / 767.

(2) المصدر نفسه ق3 / م2 / 555-556.

(3) المصدر نفسه ق3 / م1 / 65.

(4) هو الأديب أبو القاسم بن العطار، أحد أدباء إشبيلية ونحاتها، أورد له من ترجموا لحياته كثيراً من الشعر. انظر الخريدة 285/2، والقلائد 880/4، والمغرب 259/1.

البر في هذا الموضوع وكتب فيه، فقد أرسل رسالة إلى أحد أصدقائه وقد تقلد منصب الوزارة، فدعا الله أن يحفظه، ويعصمه من حوادث الدهر، لأنه صاحب ودّ وعهد⁽¹⁾.

لقد كانت رسائل التّهنة صورة من صور المدح وإظهار المناقب بين الصديق وصديقه، استخدم فيها الأدباء فنون البلاغة المختلفة حتى يستطيعوا أن يعبروا عن عواطفهم ومشاعرهم التي لم تخل من تزلّف وتكلّف.

3- رسائل العتاب:

يمثّل هذا النوع من الرسائل صورة من صور المودة والصداقة، وتكون في موضوعها مفاتحة من الكاتب لصديق له، يعاتبه فيها عن إساءة صدرت عنه لم يكن يتوقعها. ومن رسائل العتاب رسالة بعث بها ابن طاهر⁽²⁾ إلى ابن عمار، وهو في بداية رسالته يمدحه لجوده وكرمه، وبلاغته ومنطقه، واهتمامه بالأدب والأدباء، يقول: «والله يبقيك لإحياء رسم الأدب، وإقامة أود لسان العرب»، ويركز بعد ذلك على وصفه بالبلاغة بعد أن قرأ خطاباً منه، يقول: «ولم أزل ألمحه، وأجبل طرفي فيه، وأتصفّحه، متعجباً من غرائب كلمك وبدائع حكمك»، ثم يصل إلى موضوع العتاب، وهو الموضوع الرئيس في الرسالة، فيشير إلى أن أحد الوشاة قد حاول أن يعكّر صفو العلاقة بينه وبين ابن عمار، ويطلب منه ألاّ ينتبه وألاّ يستمع إلى الوشاة الذين يسعون بالتّميمة فيقول: «وكنت عهدتك تقضي بالخير على طباع الناس، ولا يوضع على بصيرتك منه غطاء والتباس، حتى فاجأني ما لو أخبرت به عنك لأنكرته، ولا أدري له سبباً، ولا أعرف له موجبا، إلّا الإصغاء إلى من يضرّب ويسعى بالفساد، ويدبّ بعقارب الأحقاد»، ويتحدّث بعد ذلك عن العلاقة المتينة التي تربطه بالمخاطب ابن عمار، فهي علاقة بينهما ثابتة لا تتغيّر، ولا يستطيع ابن طاهر - كما يقول - أن يلغيها أو ينساها، لأنها في وجدانه، وإن بُعد عن صاحبه بسبب مصائب الزّمان، ويطلب

(1) الذّخيرة ق3/م1/216.

(2) المصدر نفسه ق3/م1/31.

منه العذر لبعده عنه، فيقول: «فابسط العذر، وسهل الأمر، والله يهنيك صحة تكفك، وسلامة تشملك برحمته، والسّلام على من أراني عتابه».

ولابن طاهر رسالة أخرى⁽¹⁾ في عتاب بعض الأقارب، يذكر في بدايتها بصلة الرّحم والقربة من منطق ديني، مستشهداً ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ويبيّن بعد ذلك سبب ابتعاده واستعلائه عليه، كما يبيّن له أنّه يستطيع أن يستغني عن هذه العلاقة إذا كانت ستتعبه. واشترك ابن خفاجة في كتابة رسائل في العتاب، منها رسالة⁽²⁾ إلى صديق له يعمل في القضاء، يذكر فيها مناقبه أولاً ثم يعاتبه لأنّه لا يجيبه على رسائله.

لقد كانت رسائل العتاب في الأندلس تعبّر عن المودة والصداقة، لأنّها مفاتحة من صديق إلى صديق حفاظاً على المودة بسبب إساءة صدرت، وكانت هذه الرسائل كثيرة في الأدب الأندلسي لكثرة العلاقات التي كانت تربط الكتاب مع الأمراء والوزراء والقواد الراغبين في إدامة هذه العلاقة، وقد تكون بين قريب وقريب عزيز، ولا يراد لهذه العلاقة أن تنتهي أيضاً.

4- رسائل الشكوى من الزمن:

والدّهر لا يبقى على حدّثانه كما قيل، فقد يُدير ظهر المجن للكثيرين، وهنا تنطلق صيحات الشكوى من الزمن، وقد ظهر ذلك في نثر الأندلسيين في بلنسية في القرن الخامس الهجري، وكان ممّن نهشه الدّهر بأنّياه الكاتب الأديب ابن طاهر، فشكا الزّمان وويلاته وصروفه، ولا سيما بعد اعتقال ابن عمار له، وأراد أن يقتله، لكن أبا بكر بن عبد العزيز أخرجه من معتقله، فكتب ابن طاهر رسالة⁽³⁾ يشكر مخلصه من الأسر، بيّن فيها أنّ الزّمان قد أساء إليه، وقد شكّا كثيراً من موقف ابن عمار منه، ثمّ

(1) المصدر نفسه ق3 / م54/1 - 55.

(2) المصدر نفسه ق3 / م551 - 552.

(3) المصدر نفسه ق3 / م1 / 33.

كتب رسائل أخرى إلى بعض الرؤساء يشكو سوء حاله، يقول في رسالة ⁽¹⁾ خاطب بها ابن هود ⁽²⁾ : «إن الأيام -أيذك الله- تلون ألوانها، وللمساءة إحسانها، ماتذر شيئا إلا تصدعه، ولا وصلا إلا تقطعه، إن أقرت عهداً نقضته، أو بنت بنيانا قوّضته، على أنّها قد تعود، ويكون لها الأثر المحمود ... ورمّنتي - أيذك الله - بسهامها، وجرّعتني غصص حمامها، فكأن الله ستر وقى، وصنع أبقى، مكّن النفس من رجائه، ووطّن الصبر على قضائه، طمعا في الحظّ من ثوابه».

وكتب أخرى إلى الحاجب عماد الدولة ⁽³⁾ ابن المقتدر بن هود، وإلى المظفر صاحب «لاردة» وكتب إلى القادر بالله ابن ذي النون ⁽⁴⁾ يشرح في هذه الرسائل ما لاقاه عند ابن عمار من ويل وظلم، وما آل إليه حاله، فقد أصبح سجيناً بعد أن كان حاكماً، وشكا ابن خفاجة الزّمان أيضاً، وتحدّث عن تقلّب الدّهر، وقلة الوفاء، وندرة الأخوان الذين انتشر عقدهم - كما يقول -، وشكا كثرة الفساد، يقول: «وما تذكرت عطل نحر الزّمان من قلائد الإخوان، وكيف كرّ الدّهر فمحا محاسن تلك الصّحيفة وطوى طوامير تلك الشّبيبة، إلّا انقدحت بصدري لوعة لو أنّها بالحجر لانفطر فانفجر...» ⁽⁵⁾.

5- رسائل الرّثاء والتّعازي:

وتعني مشاركة الآخرين أتراحهم وأحزانهم، وقد صوّر الأدباء في رسائلهم كثيراً من هذه المواقف، وتحدّثوا عن آلام النّفس وحزنها وفجيعتها، وغالباً ما كانت تبدأ هذه

(1) المصدر نفسه ق 3 / م 34-35.

(2) هو المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود، تولى الحكم بعد والده المستعين سليمان بن هود، حكم سرقسطة وتبيلة وقلعة أيوب وبربشتر... من سنة 1046/438 وتوفي سنة 1081/474. انظر البيان المغرب 55/54.

(3) هو عماد الدولة أحمد بن أحمد المستعين ابن المؤتمن أحمد المقتدر بن سليمان المستعين بالله بن هود الجذامي، تولى مقاليد السّلطة بعد أحمد المستعين سنة 1109/503، وأخرجه أهل سرقسطة من أرض الأندلس. انظر المغرب 54/4.

(4) هو يحيى بن إسماعيل بن المأمون، كان والياً على بلنسية قتل سنة 1092/485 على يد الجيوش التي أرسلها محمد بن عائشة من مرسية، تولى السّلطة بعده القاضي أبو جعفر الجحاف. انظر البيان المغرب 31/4.

(5) الذخيرة ق 3 / م 554-555.

الرسائل بالوعظ والإرشاد، وبالتذكير بالقضاء والقدر، يقول ابن عبد البر⁽¹⁾ معزيا بعض أصدقائه في والدته: «بودي - أعزك الله - لو خاطبتك بالتهنئة لا بالتعزية، وشاركتك بالعطية لا بالرزية، ولكنها الأيام تحلي وتُمر والأقدار تسوء وتسرّ، والرزايا تتطرّف وتتحيف». ويظهر الكاتب بعد ذلك تفجّعه على الميت، فيقول: «واتصل بي وفاة الوالدة ... فساءني - يعلم الله - أن يطرق خطب حماك، ويطأ رزء ذراك»، ثم يذكر مناقب الفقيدة، ويدعو لها بالرحمة. وللکاتب نفسه رسالة⁽²⁾ عن ابن طاهر إلى ابن أبي عامر يعزيه بوفاة أحد أبنائه، يذكره فيها بالأيام وتقلّبها، طالبا منه الصبر والجلد، يقول: «وإن كان الله قد أخذ ابنا فقد ترك أبناء، وإن كان قد سلب نعمة فقد وهب نعماء»، ويدعو في نهاية رسالته إلى والد الفقيد بطول العمر والبقاء.

وكتب ابن طاهر رسائل في التعزية وضعها ابن بسام في باب خاص سمّاه التعازي، ومنها رسالة⁽³⁾ إلى ابن رزين⁽⁴⁾ يعزيه في أبيه «ذي الرياستين»، يذكر في بدايتها محاسنه الكثيرة، ثم يصف أثر الفاجعة في نفسه، فيقول: «فأما القلب فمنحلّ ومنسلب، وأما الدّمع فمنهلّ ومنسكب». ويقول في رسالة أخرى: «كتبت والدّمع واكف، والحزن عاكف للرزية الشاملة، والقاصمة النازلة في فلان، فيا عظم ما دهمت به الأيام، وفجع به الإسلام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون».

إن البناء الفني للرسائل التي كتبت في الرثاء والتعازي في هذه الفترة متشابه إلى حدّ كبير، فهي تبدأ في معظمها بالوعظ والإرشاد، والإيمان بالقضاء والقدر، ويفتحها أصحابها - عادة - بالتذكير بالدنيا وزوالها، بعد ذلك يرجعون إلى موضوعهم الرئيس،

(1) المصدر نفسه ق 3/م 812/1.

(2) المصدر نفسه ق 3/م 22-21.

(3) المصدر نفسه ق 3/م 76/1، وانظر فصل التعازي في المصدر ص 57 وما بعدها.

(4) هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين، كان في حياة أبيه يستمى حسام الدولة، حكم مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاما، وكان ينظم الشعر (ت 496 / 1102). انظر الحلة السيرة 108/2، والبيان المغرب 181/3.

وهو تبيان المشاعر نحو الفقيد ثم تعداد مناقبه والتعزية فيه. وفيها تظهر النزعة الدينية جلية.

6- رسائل الشفاعة والوصايا:

وتبرز هذه الرسائل في أدب الأندلسيين لتأخذ حيزاً بينا بين الرسائل الإخوانية، فهي تعنى بالعلاقات الاجتماعية، والروابط الأخوية والإنسانية، وتهتم بالشفاعة أو بالوصايا أو بالإثنين معاً، وتبدأ- في معظمها- بمقدمة تبيّن أهمية المودة بين الكاتب والمخاطب، وتذكر بالأيام الماضية وما فيها من محبة وألفة وصفاء في هذه العلاقة، ثم يتحدث الكاتب عن موضوعه الرئيس في الرسالة وهو الشفاعة والتوصية. ومنها رسالة⁽¹⁾ لابن خفاجة يوصي فيها أحد أصدقائه بأن ينزل رجلاً يعرفه منزلاً حسناً. وهو يبدأ بمدح المخاطب، ويبيّن أن منزلته عالية، وعطاياه كثيرة، ثم يذكر بعض سجايا الموصى به، فهو شريف وكريم، يقول: «وإن أبا فلان الهاشمي لفرع من أشرف نبتة، نمت في أكرم بقعة، ومن حلّ من الشرف محلّته، ولبس من الفضل حليته فقد غني عن الإطراء والثناء»، ومن الوصايا ما كتبه⁽²⁾ ابن طاهر يوصي في أبي القاسم عبد الدائم وقد بدأ رسالته بالثناء على المخاطب، ثم مدح الموصى به، وذكر أنه أديب صاحب فكر، وبعدها شرح حاله، وبين رغبته في المجيء إلى المخاطب موضحاً أنّ سبب قدومه هو العلاج، ثم يدعو للمخاطب بطول البقاء ويكثر له من الثناء.

وقد ترد رسائل الشفاعة في أديب مسّه الضرر، فيرجى له من الأمير العون والرعاية والتأييد، وقد يذكر اسم الأديب أو يغفل أحياناً، ويكنى عنه بفلان، ومن ذلك رسالة⁽³⁾ لابن عبد البر يشفع فيها بابن حماد أحد القادة، فبعد أن يذكر صفات

(1) الذخيرة: ق 3 / م 2 / 155، وانظر للكاتب نفسه وفي المصدر نفسه رسالة يشفع فيها لكحال ص 550، وانظر أخرى في الشاعر ص 550 أيضاً.

(2) المصدر نفسه ق 3 / م 2 / ص 6-16 وانظر للكاتب نفسه القلائد 561/1.

(3) المصدر نفسه ق 3 / م 2 / 902، وانظر أخرى في الموضوع نفسه والمصدر نفسه ص 201 وما بعدها.

المخاطب وصفات المشفوع له، يقول: «وقد علم أن فلانا المذكور سهم من سهام تلك الدولة على أعدائها، وسيف مسلول دون من يليها... وفي الإبقاء عليه إبقاء على جمهور من المسلمين كثير، وإحياء من الأرضين كبير».

لقد كثرت رسائل الشفاعة والوصايا في هذه الفترة- موضوع البحث- وقد ظهر منها مدى أهمية العلاقات الاجتماعية بين الناس ولا سيما الكتاب منهم في خدمة الآخرين أو خدمة بعضهم بعضا. وقد كان البناء الفني في هذه الرسائل متشابها إلى حد كبير، فعادة ما يبدأ الكاتب بذكر أيام المودة والصفاء، ثم يذكر صفات المخاطب، ومن ثم يذكر وصيته أو شفاعته.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأدب الأندلسي كان على اتصال دائم مع جذوره في المشرق، حتى أن المغاربة ظلوا يرددون - حتى القرن الثامن الهجري- أن أصول علم الأدب وأركانه أربعة، هي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «الكامل» للمبرد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي البغدادي⁽¹⁾، يقول ابن بسام: «إلا أن أهل هذا الأفق - يقصد المغاربة- أبوا إلا متابعة أهل الشرق... حتى لو نعق بتلك الآفات غراب، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلو ذلك كتابا محكما»⁽²⁾. لقد نظر المغاربة إلى أدب المشاركة وعلوم اللغة عندهم نظرة إعجاب، فاتصلوا بهم، وقلدوهم وساروا على خطاهم، حتى أننا قد لا نجد فروقا أساسية بين نماذج الأدب في العراق وفي الشام وفي مصر وفي الأندلس، مع أنه قد يوجد بعض التمييز بين بعض الأقاليم، «ولكن ينبغي ألا ننزل من ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لنفسها آدابا مختلفة باختلافها»⁽³⁾.

لقد أقام الأندلسيون حركتهم الفنية على الأصول المشرقية، لأنهم كانوا يعدونها المثل الأعلى لحركتهم الأدبية، وهم -عندهم- منبع العلوم والآداب والفنون،

(1) ابن خلدون: المقدمة ص 155.

(2) الذخيرة ق 1/ م 21.

(3) د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي ص 320.

«وأصحاب المقارنة بين الأدبين يفيضون في بيان طرق الاحتذاء وألوانه، ويرددون أسماء المقلّدين، ومنازع تقليدهم»⁽¹⁾.

إنّ القارئ المتأمل في النثر العربي عند المشاركة والمغاربة يلحظ تشابها بينا بينهما، وهذا طبيعيّ، فاللغة واحدة، والثقافة مشتركة، والبيئة متشابهة. كانت الطريق بين الأفطار الإسلامية سابلة، ومؤلفات المشاركة واصله تباعا وبسهولة إلى المغرب العربي، كل هذه الأمور وغيرها، جعلت الأندلسيين معنيين بأهل المشرق، وما يصدر عنهم.

فتشابه الأندلسيون - في آثارهم - بآثار إخوانهم المشاركة، فالمصادر واحدة، والآلام واحدة، والعادات والتقاليد متقاربة إلى حدّ بعيد⁽²⁾، لهذا شاعت الأساليب المشرقية في كتابات الأندلسيين، وحاكى الأندلسيون المشاركة في الكتابة. يقول مصطفى الشكعة عن الرسالة الديوانية: «ولا تصيب الرسالة الأندلسية أي تطوّر أو تغير، بل تظلّ مصرّة على السير في ركاب قريتها المشرقية واقتفاء أثرها»⁽³⁾، ومع هذا فلا نستطيع أن ننكر أن النثر الأندلسي قد خرج في أجزائه واختيار موضوعاته على أدب المشاركة بعض الأحيان⁽⁴⁾.

لقد استمدّ الأدب العربي في الأندلس قوّته وأسلوبه من منبعه في بلاد المشرق العربي، حيث وصل الأدب هناك إلى ذروة نضجه، فنظر المغاربة إليه نظرة إعجاب، فحاكوه وساروا على نهجه، واتكأوا على مصادره وكانت ظروف الاتصال بين الأدب المشرقي والمغربي مهيأة. ولا ننسى أن نشير إلى أنّ الطريق معبّدة، حيث كانت

(1) محمد رجب بيومي: الأدب الأندلسي بين التآثر والتأثير ص 23، وانظر أيضا جودت الركابي: في الأدب الأندلسي ص 59.

(2) د. حازم خضر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف ص 528.

(3) د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه 532 وانظر أيضا د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين ص 284.

(4) د. حسين خريوش: ابن بسام وكتابه الذخيرة ص 196.

المؤلفات تصل تباعاً إلى المغرب العربي، ولا ننكر بعد هذا أنه كانت للأدب الأندلسي بعض الخصوصية.

الفصل الثاني: خصائص أدب الرسائل:

ظهرت خصائص عامة ميّزت الرسائل في بلنسية في تلك الفترة، وأظهرت تشابهاً بيناً في البناء الفني، ويمكن أن تظهر خصائصها جلية في الجوانب التالية:

1- البدء والعرض والختام:

إنّ المتمعّن في نماذج الرسائل الأدبية في هذا القرن يجد تشابهاً كبيراً في بدء هذه الرسائل وختامها، فالأندلسيون لم يحفلوا في رسائلهم بالاستفتاح المعروف بالتسبيح بذكر الله والصلاة على رسوله، بخلاف رسائل النثر في المشرق العربي حيث درج الكتاب على أن يبدأوا رسائلهم بالحمد والتسبيح، وصار تقليداً، من خرج عليه سمّيت خطبته «البراء»⁽¹⁾.

لقد جاءت الرسائل الأدبية في الأندلس خالية من تلك الافتتاحيات، حيث كانوا يدخلون إلى الموضوع مباشرة أو يمهدون له باختصار في كلّ أنواع رسائلهم، الديوانية والإخوانية والوصفية. وكانت تظهر عندهم القدرة على التخلّص من المقدمة إلى العرض الذي يبدأ عادة بكلمة «كتبت»، «وكتابي»، «وكتابنا»، «وخطابنا»، «وأما بعد» ويختتمون رسائلهم عادة بالدعاء إلى المرسل إليه، ويسلمون عليه.

2- الجمل الدعائية والمعتضة:

كثرت الجمل الدعائية والمعتضة في الرسائل الأدبية في هذه الفترة. والجمل الدعائية هي التي تتضمن الدعاء بدوام العزّ والسعادة، وامتداد الأجل، وازدياد القوة. أما الجمل المعتضة فهي التي تأتي في درج الكلام ويمكن الاستغناء عنها، لكن قد تأتي لغير غرض، منها الدعاء، ومنها الاحتراس، ومنها التفسير. وتكثر هذه الجمل الدعائية

(1) البيان والتبيين 2 / 242.

والمعتزضة في المديح والتّهاني والتّعازي، ورسائل الشّفاعاة والوصايا والاستغاثة، ولا نجدّها في الرّسائل الدّيوانيّة.

3- التّنوع بين الشعر والنثر:

إنّ اللّافِت للنّظر أن تشتمل الرّسائل الأدبية على بعض الأبيات الشعريّة التي يأتي بها الكاتب لتدعم الفكرة التي يتحدّث فيها، ولتؤكد المعنى الذي يريده، ومن مثل ذلك رسالة ابن غرسية⁽¹⁾، فهو في هجومه على العرب يقول (الرّجز) :
أمكم لأمنّا كانت أمّه إن تنكروا ذلك تُلَفُوا ظِلْمَهُ
ويقول (البسيط):

من الألى غَيْرَ زجر الخيل ما عرفوا إذ تَعْرِفُ العُربَ زجر الشّاء والعكر
وهذه الأبيات وما يماثلها جاءت لتدعم فكرته عن العرب. ومن مثل ذلك ما ذكره أبو جعفر بن أحمد متذمراً من الدّهر في إحدى رسائله⁽²⁾، يقول (مجزوء الرّمل):

جار ذا الدّهر علينا وكذا الدّهر يعجور

كان شرطيا أبونا وأخي اليوم وزير

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ معظم الرّسائل الأدبيّة كانت حافلة بالشّعر⁽³⁾.

4- الاقتباس والتّضمين :

والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشّريف من أهمّ ما يلفت النّظر ونحن نتناول الرّسائل الأدبيّة في هذه الفترة. ويكثر الاقتباس في رسائل الجهاد، ومن ذلك -مثلا- ما كتبه ابن طاهر إلى أمير بلنسية بعد عودتها إلى الحضرة الإسلاميّة، يقول: «فالحمد لله رب العالمين... وددت أن أسعد بلقائه، وأستظلّ بلوائه، وألمّ بجوانبه، وأسير

(1) الذّخيرة: ق3 / م2 / ص 707، 708.

(2) المصدر نفسه ق3 / م2 / 758، وانظر رسالة الأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله إلى الوزير أبي محمد بن القاسم في «المغرب في حلى المغرب» 2 / 397.

(3) انظر الذّخيرة ق3 / م1 / م2.

في كتابه، فأنا لحظًا جسيمًا، ﴿يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا﴾ [النساء: 73]. وقد ترد معاني الآيات دون نصّها حرفيًا، من مثل رسالة لأبي جعفر بن أحمد⁽¹⁾ في تهديد قوم من النصاري، يقول فيها: «أيتها الشرذمة الطاغية، إنكم لنا لغائظون، وإنكم لتفسدون في الأرض ولا تصلحون...». وقد ظهرت الأحاديث بنصّها في غير رسالة⁽²⁾.

واستخدم ابن خفاجة⁽³⁾ مصطلحات النحو المختلفة للتعبير عن بعض آرائه، فقد أظهر في تلك الرسائل ثقافة لغوية عالية، يقول مخاطبًا أحد أصدقائه وقد ولي حصنًا: «طال الله بقاء سيدي، التّبيهة أوصافه، التزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته، الكريمة بالابتداء، فحذفت ياء يرمي للجزم...».

5- الإيجاز والإطناب:

وكانت كثير من الرسائل قصيرة⁽⁴⁾، واتّسم بعضها بالطول أيضًا، وكان الموضوع هو الذي يحدّد ذلك.

6- السجع :

اتّسمت معظم الرسائل الأدبية باستخدام السجع الذي لم يؤثّر على المعنى، كما اتّسمت ألفاظها بالسهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد حينًا وبالغربة لتنسجم مع الموضوع أحيانًا أخرى⁽⁵⁾.

الخاتمة:

ظهر لي في نهاية هذا العرض السريع لأدب الرسائل في بلنسية في القرن الخامس الهجري أنّ هذا الفنّ لم ينقطع عن جذوره في المشرق، فعليها استند، وبها اتّصل، مما يجعلنا نقرّر أنّ الأدب العربي في الأندلس هو امتداد للأدب العربي في

(1) المصدر نفسه ق3 / م / 762.

(2) المصدر نفسه ق3 / م / 67، 45.

(3) نفح الطيب 2 / 68.

(4) الذخيرة ق3 / م / 2 / وانظر رسائل ابن خفاجة في الوصف ص 455 وما بعدها.

(5) المصدر نفسه ق3 / م / 1، وانظر رسائل ابن عبد البر في قتل إسماعيل بن المعتضد ص 137-143.

_____أدب الرسائل في مملكة بلنسية في القرن 11/5_____دراسات أندلسية_____

المشرق، فالطريق سابلة، والإنتاج الأدبي متبادل لا ينقطع، والوفود العلمية كثيرة ودائمة الحركة، فامتزجت الأفكار، وامتزج البناء، مع ملاحظة أن الأندلسيين قد أغرتهم البيئة، وحاولوا أن يكونوا شخصية متفردة لهم، لكن جذورها متصلة مع المشاركة.

وبرز في هذا القرن عدد كبير من الكتاب في مملكة بلنسية كتبوا في معظم ميادين الحياة المختلفة. هيأت ظروف وعوامل عديدة لتطور الرسائل الأدبية وانتشارها، وتميز دورها على الساحة الثقافية، ومن هذه العوامل: عوامل اجتماعية حيث الفساد والبذخ والصراع على السلطة، وعوامل سياسية أدت إلى سقوط الخلافة، ووجود ممالك الطوائف التي تصارعت فيما بينها وتشاحت، مما أتاح للخطر الخارجي المتمثل في الصليبيين إلى مهاجمتهم والنيل منهم، وسقوط الممالك الأندلسية الواحدة تلو الأخرى. ولا ننسى أن نضيف شيئاً آخر، وهو الاهتمام بالعلوم والآداب عند الحكّام وغيرهم، على الرغم من الانحطاط السياسي، كلّ العوامل السابقة أدت إلى وجود رسائل تصوّر المجتمع وعلاقات الناس ببعضهم وبالسلطة، وظهور رسائل جهادية ضدّ الصليبيين، تستنهض الهمم للدفاع عن بيضة الإسلام، واستغلال بعض الحاقدين لضعف الأمة لينالوا منها في بعض رسائلهم، ولا ننسى دور البيئة الذي ظهر من خلال رسائل الوصف.

أمّا من حيث الخصائص فهي متشابهة في بنائها الفني الذي يتكون من المقدمة ثم العرض وبعدها الخاتمة، واستخدام أصحابها الاقتباس والتضمين، واستشهدوا بالشعر، وأجزوا حيناً وأطنبوا حيناً آخر، واستخدموا الجمل الدعائية والمعتضة، والسجع غير المؤثر على المعاني أو البناء الفني، فأجادوا وأبدعوا، وقدموا لنا نماذج مشرقة في بناء الجملة، ودقة التصوير، والقدرة على تسجيل الأحداث.